مع المعصومين

مَـــــــنْ رَآهُ

تأليف: سعيد آل رسول
رسوم: امير نساجي
ترجمة: علي الموسوي

قسم الأطفال والناشئين في مؤسسة البعثة

مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة
اسم الكتاب: مَنْ رَآهُ (من سلسلة مع المعصومين ـ بالاعتماد على نبذة من حياة الإمام الجواد عليه السلام)
المؤلف: سعيد آل رسول
المترجم: علي الموسوي
رسوم: امير نساجي
إعداد: قسم الأطفال والناشئين في مؤسسة البعثة
الطبعة الاولى: ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م.
العنوان: ايران ـ طهران ـ شارع سميّة رقم ١٠٩
هاتف: ٨٨٢٢٢٤٤ ـ فاكس: ٨٨٢١٣٧٠ (٠٢١)
صندوق البريد: ١٣٦١ ـ ١٥٨١٥
حقوق الطبع محفوظة للناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كان الوقت صباحاً ... والنسيمات الصباحية تتهادى رقيقة منعشة ...

نظرت الى نخلتنا القائمة في فناء الدار... كما لو اودعها قبل المشوار الذي سأقضيه خارج البيت، والذي سيمتد حتى الغروب؛ غير ان صوت امي المرتعش لم يدع لي ذلك... نادتنى: ولدي! ولدي !

عدت ادراجي ... نظرت من النافذة، لم ار والدتي .. الا انني سمعتها تقول: ليس لدينا لبن... فلو ابتعت لنا منه شيئاً.

لقد نفدت كل مؤونتنا... بعد الوعكة الصحية التي انتابتني وحكمت علي بملازمة الدار أياماً عدة.

اجبت بصوت عال: سمعاً وطاعة.

فتحت الباب، ونظرت الى سعفات النخلة، التي راحت تتمايل مع النسيم، فودعتها وخرجت.

❊ ❊ ❊

مدينة سامراء[1] غنية باشجار الفواكه... وتراب ازقتها يحمل شذى ورودها الفواحة... اغصان اشجارها المثقلة بالثمار تتدلى من فوق جدران البيوت، وكأنها تحيّ المارة، وحيثما كنت تمر، ترى جدولاً من الماء الرقراق يصحبك في مسيرك...

المناظر الجميلة الخلابة تسحر العيون، وتشيع في النفس انساً وبهجة خاصين...

صحوت من افكاري، لاجد نفسي واقفا في السوق، الى جانب حانوت بائع اللبن...!

القيت التحية عليه بشيء من الارتباك، فبادرني قائلاً: منذ ايام لم نرك ياآبن خالد[2]؟

ـ لقد المت بي وعكة صحية، سلمتني للفراش أياماً.

فارتفع حاجباه دهشة، وقال: يبدو انك لاتعلم شيئاً عن اخبار المدينة؟

ـ كلا... هل لديك جديد؟!

فاقترب مني وقال: جيء بسجين الى المدينة امس..قيل انه يدعي النبوة... واردف بعد ان اطلق زفرة حارة: انه رجل عجوز من الشام...

دهشت لحديث الرجل.. وقلت في نفسي: ترى .. كيف يدعي احد النبوة؟!... الم يكن النبي محمد(ص) خاتم النبيين وآخرهم...؟!

تحركت دون وعي... تاركاً صاحب الحانوت الذي بدا أنه كان يناديني: الى اين يا ابن خالد؟ الى اين؟!

رحت احاور نفسي: ما معنى ذلك .. أيطمع هذا العجوز حقاً ان يؤمن الناس بدعوته... ام ماذا يبغي؟!

واستغرقني التفكير... حتى ذهلت عن نفسي... ولم ادر كم مضى علّي من الوقت، وانا اقف بازاء السجن..

اجل سجن سامراء الكبير...

نسيت ان اقول: ان سامراء مع كل جمالها وشاعريتها، مدينة عسكرية .. يجوب الرجال

المسلحّون طرقاتها ليل نهار... وفي هذا الجزء من المدينة- الذي سمي بالعسكر- يجثم السجن بجدرانه المرتفعة الحصينه...

حدقت في ابراج السجن... وجدتها عالية، تناطح السحاب، والجدران تبدو كالقلاع لايطمع احد في تخطيها بحال...

ما عساي ان اصنع... وكيف يكون لي ان اعرف خبر الرجل الشامي وطال بي التفكير والوقوف، حتىٰ كادت نفسي تحملني على العودة، لولا ان اجده ماثلاً امام خيالي... اجل هو بعينه... تقولون من؟ انه صديقي... اجل صديقي... ورفيق الطفولة... والذي عيّن موخراً مشرفاً في السجن.

وبجرأة لم اعهدها من نفسي، تقدمت من بوابة السجن، وقبل ان ألجها، برز لي أحد الحراس...

وعلى غير عادة هؤلاء الغلاظ... استمع اليّ الرجل بهدوء... وانا اسائله عن صاحبي...

كمن تذكر شيئاً، كاد تقادم الزمن ان يمحوه، اجاب: اجل .. اجل، اعرفه .. لقد غادر السجن الى القصر .. قصر الخليفة ... وضحك وهو يضيف: انه الآن في بغداد احد حراس الخليفة المقربين...

صدمني كلامه... الا اني عز عليّ ان ارجع خائباً... وفكرت باغتنام علاقتي بحارس الخليفة... فقلت له: هل لي ان ار هذا العجوز الشامي؟..

بدا لاول وهلة متردداً... لكنه لان بعد لأي... وسار امامي وهو يقول: ادخل.

تملكني الخوف، ولم اجتاز بعد الا عتبة الباب الاول... فالظلام يطبق بقسوة، والرطوبة خانقة تبهر الانفاس... ورائحة كريهة تنبعث من كل مكان...

وبدت الدهاليز المظلمة، وعلى جانبيها تنتشر الاقبية المرعبة كأنها افواه وحوش جائعة.

واحلولك الظلام... حتى لم يعد بوسعي ان ابصر موضع قدمي، لولا ضياء السراج الخافت الذي حمله الحارس وشيئاً فشيئاً بدأت اسباب الخوف تتعاظم في نفسي... صراخ يصك الآذان... تأوهات وحشرجات مقطوعة... أصوات السلاسل والقيود يرسف بها اصحابها...

مخيف... مرعب... جنوني... كلمات خاوية... اوهن من ان تقوى على وصف عالم السجن والاقبية السوداء...

وعند باب خشبية... توقف الحارس... عالج الباب بمفتاح من مفاتيحه الكثيرة، ثم ركله برجله... اطلق الباب صريراً قوياً كأنه صيحة الم...

تناولت السراج ورحت اهبط درجات السلم الى حيث ترك الرجل العجوز مكبلاً في طامورة عميقة...

ولما دنوت منه، رمقني بعينين يقظتين، دون ان ينبس ببنة شفة...

كان صامتاً... وقوراً... نزع عليه الشيب هيبة خاصة.

وعلىٰ يمينه في احد اركان الطامورة الضيقة وضع كوز صغير من الماء، وقدح فخاري....

نظرته الواثقة... الفاحصة، احسستها تلفحني من قمة رأسي حتى اخمص قدمي... فارتجف قلبي...

اقتربت منه قليلا... ولا ادري كيف واتتني الشجاعة للجلوس ازاءه...

ساد الصمت لحظات... كنت خلالها اجهد لاستعادة رباطة جأشي... واخيراً وجدت نفسي مدفوعاً بالخشية من مرور الوقت، دون ان استطيع الوقوف على امر الرجل، فقلت: سمعت من الناس انك تدعي النبوة، فهل هذا صحيح؟!

صرف وجه عني، وقد طفت سحابة من الالم على قسماته، واجاب: أسفاً على هؤلاء الناس البسطاء..!، انهم يصدقون مايشاع دونما تثبت...

ـ تعني ان هذه القضية، مختلقة؟!

هز الرجل رأسه، واجاب... دون ان يخرج عن هدوءه... اجل ... اجل. فعجبت... وشعرت اني اخوض في بحر من الغموض والابهام... ما شأن هذا العجوز؟!...ولم يقاد الى السجن؟!... وعلام يرمى بهذه التهمة؟!

تشبثت بيد الرجل، وقلت كالمتوسل: لولا اخبرتني قصتك !!

تنفس بعمق، كمن يستعد لحمل ثقل باهض، واجاب:

تبدأ القصة من احد مساجد الشام... كنت وقتها معتكفاً في المسجد، عندها سمعت نداءً يقول: انهض!

التفت نحو مصدر الصوت... رأيت شخصاً، عليه سيماء الصلاح... وجهه يفيض بنور ملكوتي....

سار امامي، فتبعته دون وعي... ولم أزل تحت تأثير المفاجأة... عندما وقفنا امام مسجد كبير... مآذنه شامخة مرتفعة...

قال: اتعرف هذا المسجد؟

اجل... انه مسجد الكوفة. اجبت بشئ من الارتباك!

دخل المسجد فدخلته... ووقف بين يديّ الله في صلاة خاشعة... فامتثلت لفعله...

ثم خرجنا... ولا ادري كيف اصف ماحصل... كل ما ادريه اننا سرنا خطوات... خطوات فيما احسب... يااالهي... انه مسجد النبي الاكرم (ص)...

ولم يدعني صاحبني نهباً للدهشة... فقد دلف الى المسجد، وراح يتنفل لله بركعات... ففعلت مثله...

وبخروجنا... بدأت اعد نفسي لاستقبال مفاجأة أخرى...

وهكذا كان ... فقد طفنا ببيت الله الحرام ذلك اليوم، قبل ان نعود الى المسجد الذي كنت معكتفاً فيه.

اسئلة كثيرة كانت تختلج في نفسي... وكلما نويت طرحها على الرجل الصالح ذاك... داخلني الحياء...

الآن وقد ضمني مسجدي من جديد... وشعرت بالالفة عاودتني بعض شجاعتي، فرفعت رأسي وقلت: هل لي ان ...

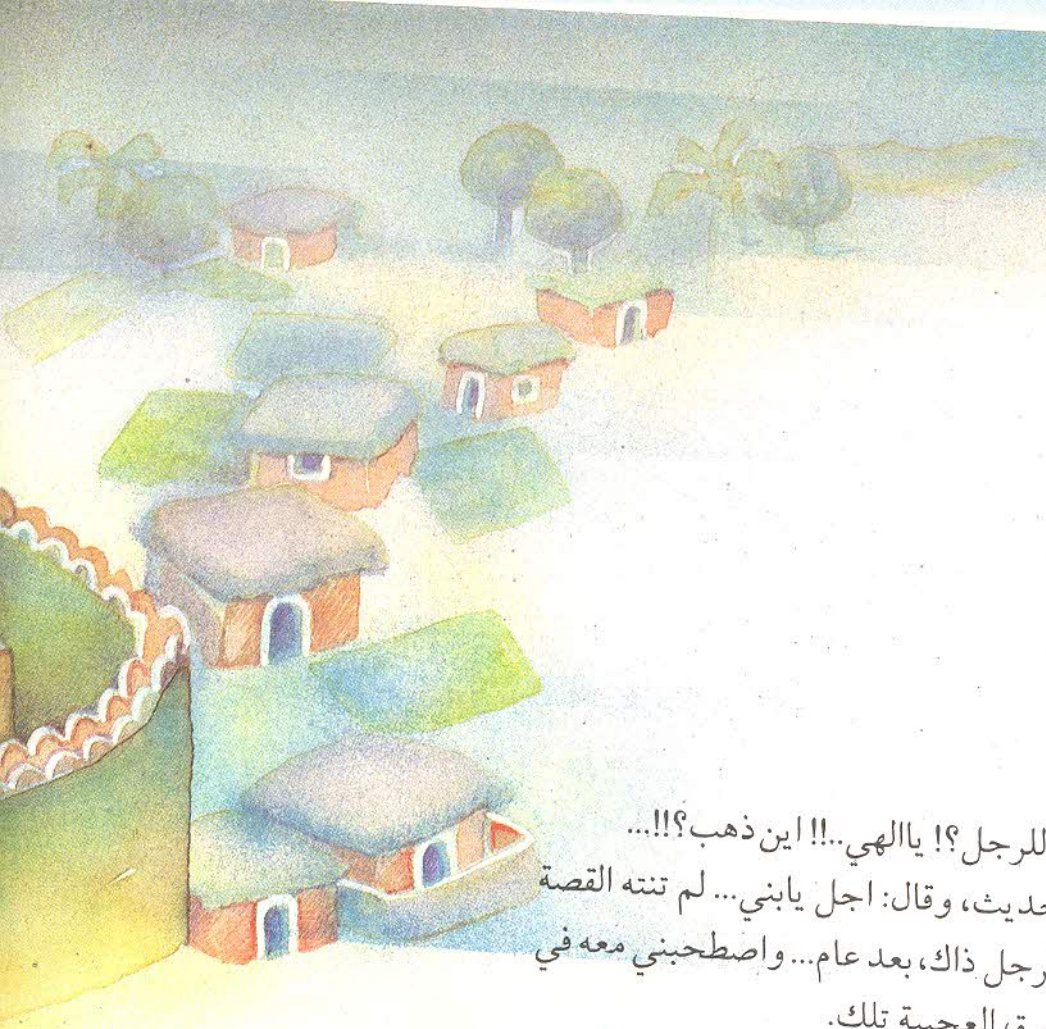

ولكن..... لا وجود للرجل؟! يالهي..!! اين ذهب؟!!...

توقف الشيخ عن الحديث، وقال: اجل يابني... لم تنته القصة عند هذا الحد... فقد عاد الرجل ذاك، بعد عام... واصطحبني معه في نفس رحلته الطويلة القصيرة، العجيبة تلك.

واردف: الا انني لم افوت الفرصة هذه المرة... فقد اقسمت عليه بالله، ان يعرفني نفسه...

فاطرق قليلاً... ثم رفع رأسه... ونطق باسمه واسم ابيه.

قال الشيخ ذلك ثم سكت من جديد.

تطلعت اليه، استحثه على اكمال حديثه...

حدق في عينيّ قليلاً وقال: انه محمد الجواد... الامام التاسع للشيعة...

احسست لاول مرة ـ منذ بدأ الشيخ حديثه ـ انني اعيش في عالم آخر تماماً... عالم سماوي رفيع...

ومع الصمت الذي ساد لدقائق... افقت... رجعت الى عالمي... واستيقظ سؤال في ذهني... لم يكن سؤالي... عن سر هذه الاعجوبة!!

فمثل الجواد... بقية البيت النبوي... المنبع الطاهر الذي يفيض ابداً.. نوراً وهداية.. البيت الذي تعرج النفوس بهداه الى ملكوت السماء...

اجل... ليس بكثير على الله سبحانه وتعالى القادر المدبر، ان يسّخر لآل هذا البيت وهذا العبد الصالح عوامل الطبيعة... وقوانينها...

لم اسأل كيف حدث ذاك؟ وانما سئلت: ما علاقة هذا الامر بادعاء النبوة؟

تغيرت سحنة الشيخ... واجابني بانفعال ظاهر: انني لم ادع النبوة! ذلك كذب وافتراء...

واطلق زفرة نارية... ثم تكلم بلهجة اقل توتراً، فقال: المشكلة انني ذكرت هذه القصة..... وتناقلتها الالسن، حتى بلغت مسامع محمد بن عبد الملك الزيات [٣]، فأمر بالقاء القبض عليّ، زاعماً اني مدعٍ للنبوة.... ثم أُقتدت الى مدينتكم هذه.

دوّت كلمة « الزيات » في رأسي بعنف... وهزني الخوف.. ذلك ان هذا الرجل - وهو وزير المعتصم العباسي - فظ، غليظ القلب سفاك للدماء، لايرحم احدا...

ألسنة اللهب تتصاعد من فوهة التنور... وفي جوفه... تشابكت آلآف المسامير الحمراء المتوهجة... ويسحب الجلاوزة الشيخ المسكين....

لا...لا... هززت رأسي بعنف لا طرد هذه الخيالات المرعبة... يالهي.. ايقاد هذا الشيخ البائس، ليلقى في جحيم العذاب الرهيب ذاك.. تنور الزيات...

وتوهمت بصيص نور،وقلت مع نفسي: لم لايكون الشيخ قد وقع نتيجة سعاية بعضهم... او.. او ان الحكاية بولغ فيها خلال نقلها للوزير.

اجل... ينبغي لي العمل من اجل اطلاق سراحه.. سيما وان الفرصة لم تفت بعد...

يكفي.. يكفي.. فلنذهب... هتف حارس السجن، وتناول مني السراج، وهو يستدير للخروج .. ودعت الشيخ بكلمات يلفها الالم... وضغطت على الحروف، وانا اقول:

لن ادخر جهداً في سبيل اطلاق سراحك.

لحظت ابتسامة خفيفة تطوف على وجه الشيخ، وانا اتجه للخروج من الطامورة...

* * *

اين اللبن؟..

فاجأتني امي بسؤالها... بينما كنت اهم بالجلوس في احدى زوايا البيت...

آه... لقد نسيت!... وقبل ان تواجهني بلماذا وكيف... حدثتها بجميع ما حصل لي ذلك اليوم.

يمكنك ان تكتب بذلك لصديقك... فليس بالامر العسير عليه ـ وهو يحظى بهذه المنزلة لدى المعتصم ـ ان يسعى لك لدى الوزير...

هذا ما أجابتني به امي، بعد ان اطلعت على قصة الشيخ السجين...

وراقت لي الفكرة، فجلست اكتب.

* * *

وتمر ايام... وايام... اعيش الانتظار والقلق... ويدب اليأس في نفسي... غير اني اعود فاعللها بآلامال...

اثوب الى البيت عقب مشوار العمل، فأسأل امي: الم تردني رسالة، فتجيب بالنفي...

وتتوالى الطرقات على الباب، صبيحة احد الايام... فاهرع الى الباب مستطلعاً الخبر...

طالعتني صورة فارس شاب... آثار التعب ووعثاء الطريق البادية على معالم وجهه وهندامه، تنبىء انه وصل للتو واللحظة.

دعوته للجلوس... الا انه اعتذر وهو يمد يده اليّ برسالة.

فضضت المظروف - بعد انصراف الشاب - ولشد ما فوجئت... الوزير نفسه يتولى الرد على رسالتي؟!!

رحت اقرأ على عجل... لكن عبارة استوقفتني.

«قل للذي جاء بصاحبك الشيخ، من الشام، وطاف به الكوفة ومكة والمدينة في ليلة واحدة ان يخلصه من السجن ان استطاع.»

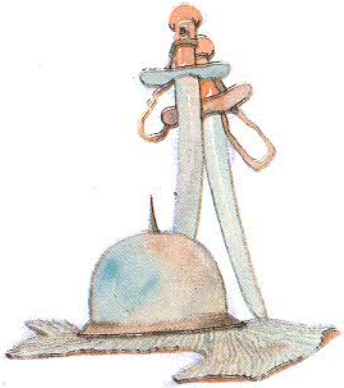

لم يتستر الوزير على غرضه... وواضح انه لم يعن احداً بكلامه غير الامام الجواد (ع).

مسحت العرق الذي انساب على جبهتي... واطرقت مليا... ولما اعياني التفكير... لم يبق لي الا ان ارَ الشيخ ـ ما استطعت الى ذلك سبيلا ـ لاعلمه باني وفيت بما قطعته على نفسي، بالسعي من اجل خلاصه..... ولا دعوه للصبر والتحمل والتسليم امام قضاء الله.

اغلقت الباب خلفي... واغذت السير صوب السجن...

كنت اعلم، ان ايداع الشيخ السجن، بعد اطلاق « اشاعة ادعاءه النبوة » لم تكن الا محاولة للتغطية على الخبر الذي راح يتناقله الناس..... من امر هذا الشيخ مع الامام الجواد (ع)...

وليس هناك شيء تخافه السلطة الحاكمة، اكثر من خوفها، اطلاع الناس على مآثر الجواد من آل البيت النبوي..، وهو ما يعني التفاف الناس حوله، وعزلتها هي وبوارها.....

لولا المشهد المخيف الذي سد الطريق امامي.. لتمادت خواطري هذه... وانستني بغيتي وربما نفسي...

انه السجن... السجن الذي اصبح يمثل لي... دهاليز مظلمة، وصرخات مرعبة.. وطوامير كالقبور لا يظهر منها الا الفزع.

وتذكرت شيخي المسيكن قابعاً في عمق الظلام الموحش..، وندت عنى آهة اوكادت...

ولكن ... يااالهي... ارى حركة دائبة في السجن... حركة غير طبيعية ما لهؤلاء الحرس يتراكضون في كل اتجاه؟ ماالذي حدث؟!

(لكأن الرجل قد حلق في السماء) قال الحارس الذي يقف الى يسار الباب... رد عليه الواقف الى اليمين: بل قل: غار في الارض.

دنوت منهما اكثر وقلت: هل لي ان اسأل عم تتحدثان؟!

لقد هرب احد السجناء. قال احدهم.

سألت بتعجب: وكيف؟!

لا نعلم... انا شخصياً لم تتسن لي رؤيته الا مرة واحدة....

كان رجلاً شامياً مسناً.. رد الآخر ...

دافعت موجة الفرح التي غمرتني... وقاومت صرخة مدوية كادت تفلت مني: انه تحدي الحق... انها كرامة اخرى.

الهوامش

١ـ سامراء كان اسمها في الاصل «سُرَّ من رأى». وهي مدينة عراقية، تقع الىٰ الشمال من العاصمة بغداد، وفيها مرقدي الامامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري عليهما السلام.

٢ـ راوي اصل القصة: علي بن خالد.

٣ـ محمد بن عبد الملك الزيات، كان وزيراً للثلاثة من خلفاء بني العباس.